الجـزء الثانى : فنانون وكُتاب

- أموس توتولا ملك الأسطورة
- موسيقيون مجهولون: فيلا أنيكولا، وصمويل ريدج
- الروائى الصومالى نور الدين فرح.. البساطة المركبة
- نادين جورديمر الفائزة بجائزة نوبل
- الأب عيروط (القس الذى أحب الفلاحين)
- رهبان العلم (الأب قنواتى والأب جومييه)

obeikandl.com

obeikandl.com

آموس توتولا
ملك الأسطورة

رحل الروائى النيجيرى المبدع آموس توتولا، مات دون أن يذكره أحد، أو تشير إليه إحدى وسائل الإعلام التى تتلهف على خبر تصنع به حكاية وتنسج حوله أسطورة، ولكنها عندما مات ملك الأسطورة تجاهلته.

وتوتولا هو أول كاتب من غرب إفريقيا يعرف على نطاق دولى، ويحظى بشهرة عالمية منذ عام ١٩٥٢م، عندما نشر رائعته «مدمن نبيذ البلح».. فى وقتها احتفى النقاد والغربيون بهذه القصة، ووصفها الشاعر البريطانى «دايلون توماس»: إن هذه القصة الشيطانية موجزة مرعبة ساحرة تخلب اللب، صاحبها خيالى حالم، ذو عبقرية لا يرقى إليها الشك، وكتاباته ملاحم نثرية، إنه ملك الأسطورة بلا منازع.

توتولا لم يتلق تعليمًا عاليًا ولا منتظمًا، وإنما درس فقط بضع سنوات متقطعة فى التعليم الأولى، فهو ليس من هؤلاء الكُتَّاب الأفارقة الذين تلقوا تعليمًا جامعيًا وسافروا للخارج وساحوا وجالوا وانفتحوا على ثقافة الغرب وحصلوا على معارفه، لم يكن توتولا من هذه الصفوة، وإنما جاء تميزه من شمولية معرفته بتراث بيئته من حكايات وأساطير، وكان هذا التراث غير المكتوب هو المعين الذى نهل منه أفكاره وخيالاته، وهو معين لا ينضب، وأعاده وصب مادته وشكلها على نحو جديد مبهر؛ مما جعله يصبح أول كاتب يعرف من غرب إفريقيا.

ولد توتولا عام ١٩٢٠م لأبوين مسيحيين من قبيلة اليوروبا فى مدينة إيبوكوتا بنيجيريا.. وعندما كان طفلاً كان يجمع رفاقه الصغار فى الليالى المظلمة ويحكى لهم

حكايات عن العفاريت، وعن ساحرات الغابة، وجماجم الموتى التى تتكلم، وكان يثير فيهم بحديثه الغريب الخوف والتشوق للمجهول.

عندما بلغ السابعة لم تستطع أمه الفقيرة أن تتحمل مصاريف تعليمه، فألحقته بالعمل عند أحد موظفى الحكومة، على أن يرسله إلى المدرسة بدلاً من دفع راتب له.. واستمر توتولا يعمل كخادم وتلميذ عند هذا الرجل الطيب حتى انتقل الرجل إلى العاصمة فاصطحبه معه وألحقه بمدرسة لاجوس الابتدائية.. ظل توتولا فيها عامين، ثم لم يستطع مواصلة الدراسة؛ لأن مديرة المنزل كانت ترهقه بالعمل؛ فتجبره قبل الذهاب إلى المدرسة ـ التى تبعد ميلاً عن البيت ـ أن يقطع أخشاب الوقود ويغسل الصحون ويطحن التوابل ويملأ الماء من المضخة حتى تسمح له بالذهاب إلى المدرسة، فكان يصلها دائمًا متأخرًا.. وكان عليه أن يراجع دروسه فى فسحة المدرسة؛ إذ يستحيل استذكارها فى البيت.

هذه القسوة الشديدة جعلت توتولا يترك مخدومه ويرجع إلى قريته ويعمل حطابًا فى قطع الأخشاب، ثم مزارعًا، ثم حدادًا.. وفى عام ١٩٤٨م عاد إلى لاجوس والتحق بوظيفة ساعى بريد فى وزارة العمل، وحرره ذلك من قيود مواعيد الحضور والانصراف، فاسترجع هواية طفولته، وهى تأليف القصص، ولكنه لم يعد يرويها على أقرانه، بل أخذ يسطرها على قصاصات الورق.

فى يوم قرأ توتولا إعلانًا فى صحيفة عن دار نشر، فعكف على كتابة قصته الأولى «مدمن نبيذ البلح» وذهب بمخطوطه إلى الدار المعلنة، فأبلغه أصحابها أنهم بائعو كتب وليسوا ناشرين، ونصحوه بأن يبعث بها إلى مؤسسة فابور بلندن، وكانت المفاجأة أن نشرتها المؤسسة عام ١٩٥٢م مع مجموعة قصص أخرى استلهم أفكارها من حكايات شعبية من التراث الشفهى لليوروبا (وقد أعيد طبع هذه المجموعة فى باريس وأمريكا).

بين الأساطير والحكايات الرمزية

توالى إنتاج توتولا بالأسلوب نفسه الذى يستقى مادته من الأساطير والحكايات الرمزية بأسلوب فذ فريد.. تقول د. رضوى عاشور فى دراستها الممتازة عن توتولا: «إذا كانت الضغوط المادية أدت إلى عدم قدرة توتولا على مواصلة التعليم، أو حتى

القراءة المنهجية المتصلة، فإن حصيلته المحدودة الثقافة كان يقابلها ثراء كبير فى المعرفة التى تقدمها المجتمعات ذات الثقافات الشفهية، حصيلة من الحكايات والأساطير والحكَم والأمثال استوعبها توتولا بشكل فريد، مع قدرة على جذب اهتمام القارئ، ومهارة فى الصياغة والتصنيف، يقدم جزءًا على آخر، أو يضيف أحداثًا غير جوهرية تثرى ما هو جوهرى. . وهو فى الحالات جميعًا يمتع قارئه بقدراته البلاغية فى التشبيهات الموفقة والمدهشة، إنه كمطرب الجماعة التى يمتعها بفنه، وهو أيضًا حامل حكمتها ومعرفتها وخبراتها التاريخية.

والحقيقة أن توتولا عاش مادته قبل أن يسجلها، ولم تكن النتف العديدة من الفولكلور والطقوس والمعتقدات التى تضمنتها كتاباته مجرد أحداث يتذكرها، ولكنها كانت تجارب خبرها بالفعل، سواء كانت من معرفة فردية أو تقاليد وأعراف عرقية. كذلك كانت مؤلفات شكسبير ـ كثير منها ـ تكرارًا لمؤلفات سابقة فى عصره، أو قصصًا سيارة تجرى على ألسنة العامة، أو حكايات موروثة يمزج فيها مخترعات خيالية بأحداث وهمية وأساطير قديمة، وكان هذا سر خلود إنتاجه على مر العصور.

حين صدرت أولى روايات توتولا «مدمن نبيذ البلح» استقبلها النقاد النيجيريون بفتور، رأوا أنها لم تأت بجديد؛ فهى ليست سوى مجموعة من الحكايات الشعبية التقليدية المعروفة لديهم، بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية الركيكة التى كتبت بها، فى حين كانوا يتوقعون من أول رواية نيجيرية أن تمثلهم خير تمثيل لدى الرجل الأبيض، فجاءت حكايات توتولا بلغته الركيكة المبثوثة بلكنة إفريقية تشكل حرجًا للمتحذلقين من أهل بلده.

تبدأ قصة «مدمن نبيذ البلح» بالمدمن يتحدث بلسانه، يقول: «شربت نبيذ البلح منذ كنت صبيًا فى العاشرة، وكان أبى أغنى رجل فى بلدتنا، أنجب ثمانية أولاد أكبرهم أنا، كانوا جميعهم عمالاً ما عداى، فلم يكن لدىَّ عمل فى حياتى سوى شرب النبيذ ومجالسة الأصدقاء للشراب، كنت فقط خبيرًا فى شرب النبيذ، أتناوله فى الصباح حتى الليل، ومن الليل حتى الصباح، ولم أكن أستطيع أن أشرب ماءً عاديًا أو أى سائل فيما عدا النبيذ، وحين لاحظ أبى إدمانى تعاقد مع ساقى نبيذ ماهر من أجلى، كان عمله الوحيد هو أن يقوم باستخراج النبيذ من جذع النخيل ويصبه لى طوال اليوم.

ولهذا وهبنى أبى مزرعة نخيل تحتوى على آلاف من النخيل، كان الساقى يستخرج منها كل صباح مائة برميل من النبيذ أشربها كلها، ظللت على هذا الحال خمسة عشر عامًا حتى مات أبى فجأة. وبعد وفاته بستة أشهر ذهب الساقى يومًا إلى حقل النخيل وتأخر عن عودته فاستدعيت اثنين من أصدقائى وذهبنا إلى الحقل نبحث عنه فوجدناه جثة هامدة تحت نخلة، وعرفنا أنه سقط منها، ومات وهو يواصل صب النبيذ.

أول ما فعلته حين رأيته ميتًا، أن تسلقت نخلة أخرى وصببت منها نبيذًا وشربت حتى ارتويت، ثم حفرت أنا وصديقاى حفرة تحت النخلة ودفنا فيها الساقى، وبعدها عدنا إلى البلدة.

فى صباح اليوم التالى لم يكن لدىَّ نبيذ أشربه، وطوال النهار لم أشعر بالسعادة التى كنت أشعر بها من قبل، جلست مهمومًا، حتى أصدقائى الذين يشاركوننى الشراب لم يأتوا وتركونى وحيدًا؛ لأنه لم يعد لدىَّ ثمة نبيذ.

ظللت هكذا أسبوعًا، واشتدت بى التعاسة، فخرجت إلى البلدة أبحث عن ساقى نبيذ آخر، ولكنى لم أستطع الاهتداء إلى الساقى المناسب الذى يرضى أن يصب لى النبيذ حسب احتياجى، وحين أدركت صعوبة وجوده خطر لى ما كان يقوله شيوخنا من أن من مات فى هذه الدنيا لا يذهب إلى الجنة مباشرة وإنما يعيش فى مكان ما من هذه الدنيا، فقررت أن أبحث عن المكان الذى ذهب إليه الساقى لأقنعه بالعودة معى، وبدأت رحلتى فى البحث عن مدينة الموتى التى استغرقت عشر سنوات».

وهكذا فى إيجاز صور توتولا بداية حياة بطل روايته.. وما كان عليه من رخاء وصحبة أصدقاء، ثم تبعها بتصوير الانهيار المفاجئ لعالمه بوفاة ساقيه وعزلته، أو بالأدق ابتعاد أصدقائه، وقراره بالبحث عنه وارتياد عالم الموتى لكى يعود به.

والموت فى المعتقدات القبلية لا يستتبع فناء الميت، فإذا قضى الموت على الجسد فإن الروح تبقى وتنتقل إلى عالم آخر، وهذا العالم الآخر ليس بعيدًا عن عالم الأحياء؛ لذلك تظل الروح هائمة على مقربة من أهلها وعشيرتها، وصلتها بالأحياء لا تنقطع، واهتمامها بما يجرى بينهم لا يزول.. بهذا المعتقد يبدأ المدمن رحلته باحثًا عن مدينة الموتى.. وفى الطريق يتصارع مع مخلوقات عجيبة وحيوانات مفترسة.

ويمضى البطل يقول: «صادفت بيتًا فى شرفته طبلة صغيرة قرعتها فسمعت صوتًا يسألنى إن كنت حيّا أم ميتًا، فأجبت: أنا ما زلت حيّا.. وهنا ظهر لى الموت وصحبنى إلى الداخل، وجدت البيت يمتلئ بهياكل عظمية لمخلوقات بشرية وجماجم وأطباق وصحون كلها من هياكل عظمية.. كان الموت يقيم فى هذا البيت بمفرده، ولم يكن أحد يعيش بالقرب منه، حتى حيوانات الغابة وطيورها كانت بعيدة جدّا عنه.. وحين أردت النوم صحبنى الموت إلى حجرة منفصلة وأعطانى غطاء من قماش أسود، كان بالغرفة سرير مخيف مصنوع من عظام بشرية، وانتابنى شعور بأن الموت يبيت لى أمرًا، فلم أستطع النوم على السرير ونزلت تحته.. وكانت المفاجأة فى منتصف الليل، رأيت شخصًا يدخل الحجرة فى حذر وفى يده عصا ثقيلة واقترب من السرير المفترض أنى أنام عليه وضرب بكل قوته السرير بعصاه ثلاث مرات وخيل إليه أنه قتلنى.

يقول الناقد البريطانى جيرالد مور (الذى عمل أستاذًا فى جامعة نيجيريا، ومن هنا جاء اهتمامه وقدرته على تقييم الأدب الإفريقى): «هذه البساطة المباشرة التى تروى هذا الحادث هى مثال للرعب المستأنس، فمغامرة المدمن ليست مجرد رحلة فى الغابة الإفريقية، ولكنها رحلة فى الخيال، فى اللاوعى، فى عالم الأرواح الذى يتعايش فى كل مكان مع عالم الواقع الحى».

وما إن يبدأ المدمن مغامرته حتى تظهر الشخصيات المألوفة فى الأساطير، الشخوص الذين يفرضون عليه أنواعًا معينة كثمن لإعطائه معلومات عن مكان الساقى الميت، والمرأة الرقيقة الوفية التى يتزوجها المدمن، والوحش المفترس الذى ينبغى عليه أن يذبحه كى يرفع اللعنة عن الجماعة ويحررها من عبء التضحيات البشرية السنوية، والسحرة والمخلوق الجائع الذى يبتلع المدمن وزوجته (وهى فكرة بطن الحوت الذى يظهر منه البطل وقد ولد من جديد) وفرار المدمن من بطن المخلوق بأن يضربه من الداخل ببندقيته ثم يتلمس طريقه إلى الخارج مستخدمًا خنجرًا، وعندما يخرج المدمن من بطن المخلوق يكون قد وصل إلى مشارف مدينة الموتى.

وهناك يلتقى المدمن بساقيه الذى يحكى له كيف وصل بعد موته إلى المدينة، وكيف قضى فترة تدريب، ولم يدخلها إلا حين أصبح مؤهلاً كرجل ميت تمامًا. وأخبره أن الموتى لا يمكنهم أن يعودوا مع الأحياء، ولا يمكن للأحياء أن يعيشوا مع الموتى؛ لذلك

فعليه الرجوع إلى بلدته، ولكنه لا يتركه يرجع صفر اليدين، فيعطيه بيضة سحرية تؤدى له أى شىء يطلبه منها.

يأخذ المدمن طريق العودة الذى يكون كطريق الذهاب مليئًا بحيوانات تعترض سيره بوحشية، وبمخلوقات الجبل التى تتململ ضيقًا لوجوده وتشرع فى مطاردته، فيحول المدمن نفسه إلى حصاة صغيرة، ويلقى بنفسه فى النهر الذى يفصل هذه المخلوقات عن بلدته.. ويتفق هذا مع قواعد الأساطير بأن مطاردى البطل لا يستطيعون أن يعبروا النهر.

حين يصل المدمن إلى بلدته يجدها فى حالة قحط ومجاعة بسبب شقاق دب بين الأرض والسماء، قررت السماء على إثره منع الأمطار عن الأرض، فيستخدم المدمن بيضته فى سقى وإطعام أهل بلدته والقرى المجاورة، ويدوم الرخاء شهوراً ثم تقع البيضة وتنكسر، فيعود القحط ويهجر الناس المدمن مرة أخرى ويتركونه وحيداً بعد ما لم يعد لديه شىء يمنحه لهم.. وبعد جهد ينجح المدمن فى أن يلصق البيضة، ولكنه يفاجأ حين طلب منها طعامًا أنها تنهال بالسياط عليه.. ورغبة فى الانتقام من سلوك الناس يعلن لهم أن البيضة السحرية عادت صالحة، وحين يجتمع الحشد يأمر المدمن البيضة أن تأتى سحرها فتنهال بالسياط عليهم، ... وتنتهى الرواية.

تقول د. رضوى: إن توتولا بقصصه أعاد اكتشاف تربة الأدب الشعبى مستفيداً من دور الراوى فى المجتمعات التقليدية ذات الثقافة الشفهية حيث تتبدى مهارته فى إعادة صياغة الحكايات المعروفة لدى الجماعة، وإن رواية «مدمن نبيذ البلح» تقدم صورة لفلسفة اليوروبا عن الوجود، فلا فاصل بينها وبين الوجود الإنسانى وغير الإنسانى، فهناك وحدة تجمع الحى والميت والأسلاف والأرواح والآلهة.. والإنسان يمكن أن يتواصل مع الآلهة وأسلافه من الموتى، كما يمكنه أن يتواصل ويتصارع مع الأرواح والمخلوقات غير الإنسانية.. وتوتولا يستخدم بمهارة المخلوقات والأحداث الخرافية التى تكتظ بها حكايات اليوروبا الشعبية، ويعبر بها عن رؤياه الخاصة.. وهو يتميز بقدرة غير عادية على تصوير خوف الإنسان والعذابات التى يتعرض لها نتيجة لقسوة الوجود عليه وقسوة الطبيعة وقسوة الآخرين، ولعل توتولا استمد بعض هذه القدرة من عذاباته هو شخصيّا أثناء طفولته، كما تتبدى مهارته أيضًا فى قدرته على سرد أكثر

الأحداث لا معقولية بأسلوب واقعى وبكلمات بسيطة، ودمج الحكايات الفانتازيا بكل جموح خيالاتها مع تفصيلات الحياة المعاشة.

ويعلق د. على شلش على أدب توتولا بقوله: «لم يدخل الاستعمار قارتنا ليجدها قاعًا صفصفًا كما تزعم دعاياته.. لقد عرفت القارة حضارات وثقافات عميقة الوجود والأثر فى وجدان شعوبها وسلوكهم اليومى، ونحن إذا عبرنا الصحراء وتوغلنا جنوبًا لا نجد رمالاً وغابات، وإنما يطالعنا بشر عندهم من التراث الأدبى والفنى ما عند «السادة» البيض، ولهم نظرتهم العامة فى الأمور مثل ما للسادة المزعومين، فالإنسان الإفريقى له فلسفته الخاصة القائمة فى جانبها المادى الدنيوى على العمل والمشاركة والتعاون وحب الخير وفعله. وجانبها الميتافيزيقى القائم على السحر ووحدة الوجود والاعتراف بالعالم الآخر واحترام الموتى والتوسل إليهم وبهم إلى الخير.. وإذا تطرقنا إلى عالم الأدب وجدناه تراثًا هائلاً من الأساطير والحكايات والأمثال الشعبية والملاحم.. والأدب الإفريقى لم يتصل بهذه الثقافات اتصال السائح، ولكنه امتزج بها واتخذ من أدواتها صورًا وموضوعات ودلالات ضمنها إبداعه الأدبى وكانت بمثابة الخلفية الطبيعية للصورة التى أبدعها خياله وسجلها قلمه.. حقيقة أن الأدب الإفريقى ظل بمعزل عن التسجيل والتدوين حبيسًا يؤدى دوره فى صمت حتى مطلع هذا القرن، حيث بدأت براعم الأدب المكتوب تتفتح عبر القارة وانتشر عطرها، وآموس توتولا هو واحد من أهم هؤلاء وأوائلهم.

والحقيقة أن ما يحفل به أدب توتولا من ضروب الجمال وما يتوافر له من عناصر الإبداع الفنى بلا كلفة ولا تزيين، يقودنا إلى فلسفة عميقة الجذور عن الغيبيات وظواهر الطبيعة، ومن هنا كانت أهميته، فهو وثيقة مهمة تستحق التأمل والدراسة؛ لأنها أولا وقبل كل شىء تصوير فنى لموقف الإنسان الإفريقى من الحياة والموت والأحداث من حوله، وتعبير عن ذاته ووجدانه وأحاسيسه ومشاعره.

* * *

موسيقيون مجهولون
فيلا أنيكولا، وصمويل ريدج

مهرجان «كورا» هو مهرجان للموسيقى الإفريقية يقام فى مدينة جوهانزبرج بجنوب إفريقيا، وتأمل جنوب إفريقيا أن يصبح مهرجانًا سنويّا للاحتفاء بالموسيقى والموسيقيين الإفريقيين، ويعمل على تنمية الموسيقى الإفريقية وعرضها على العالم.

وبصرف النظر عن منح الجوائز للأعمال الموسيقية، فإن المهرجان يستهدف أيضًا تشجيع الآباء والأطفال للنظر بجدية إلى الموسيقى، والاهتمام بمستقبل الموهوبين منهم. وإذا كانت موسيقى البوب الأمريكية والبريطانية تقام لها مهرجانات سنوية وتزدهر بذلك كل عام وتكسب جوائز، فإن لدى الإفريقيين من الأعمال الموسيقية ما لا يقل جودة فنية عنها، ولديهم العديد من الموسيقيين فى مناطق إفريقيا الخمس، وغاية المهرجان أن يعمل على المساعدة لإشهارهم، وأيضًا لكى يتعرف بعضهم على بعض.

جوائز المهرجان ضئيلة ـ بين ألفين وخمسة آلاف دولار ـ ولكن القيمة الأدبية للفائزين كبيرة؛ فهى تكسبهم شهرة، وتخرج أعمالهم من نطاق المحلية والإقليمية إلى العالمية، وتحقيقًا للعدالة فإن القائمين على المهرجان يقسمون قارة إفريقيا إلى خمسة أقسام: الشمال والجنوب والشرق والغرب ووسط القارة. وخصصت لكل قسم جوائز لأحسن موسيقى رجل، وأحسن فنانة امرأة، وأحسن مجموعة أشرطة موسيقية، وأحسن ألبوم.. إلخ.

المؤسس والمنتج والمنفذ لمهرجان كورا هو «أرنست أدجوفى»، وهو ليس موسيقيّا، وإنما رجل أعمال ثرى جمع ثروته من التجارة فى ناميبيا، وتعاونه فى إنجاز هدفه شعبة اليونيسيف فى أنجولا، يقول: «إننى ككل الإفريقيين أحب الموسيقى، ولكن لا أستطيع

أن أنتجها، ومساهمتى لها أن أجوب أنحاء إفريقيا وأكتشف الفنانين». وهو لا يشترك فى أى لجنة من لجان التحكيم أو الاختبارات أو الاختيارات، وإنما دوره ينحصر فى الدعاية للمهرجان، وعقد الاتصالات مع محطات التليفزيون العالمية وتشجيع محطات التليفزيون فى إفريقيا لكى تذيع أعمال المهرجان. وهو يهدى بعضها مجانًا؛ لأن هذا النشاط ـ كما يقول ـ لا يقصد به الربح، وحصيلة المهرجان توجه للمساهمة فى تغطية مصاريف الطيران وانتقال المحكمين وغيرهم الذين يدعون إلى المهرجان.

والحقيقة التى لا تنكر أن وجه الحياة فى القارة الإفريقية يحفل بالرقص والأنغام، والموسيقى تتصل بحياة الناس اليومية، فالإفريقى فنان بطبعه، لغته الأولى كانت لغة الطبول، وبطولاته الشعبية يدور بعضها حول الموسيقى والرقص. والمثل الإفريقى يقول: «إذا دقت الطبول فى جزيرة زنجبار رقص على أنغامها أهالى شرق إفريقيا».

وكل بلد إفريقى غنى بموسيقاه المتميزة، وإن كانت موسيقى زائير هى الأكثر شهرة وشعبية فى الدوائر العالمية.

عبرت الموسيقى الإفريقية حدود القارة وانتشرت، وملأت ألبوماتها وأشرطة كاسيتاتها أنحاء كثيرة من العالم وأخذت عنها أوروبا موسيقى الجاز، ومع ذلك ظلت توصم بالبدائية والصخب، وكثير من عباقرتها الموسيقيين مجهولون، وينكر أعمالهم داخل حدود بلادهم وخارجها إما لأنهم عارضوا نظمهم الغاشمة وانحازوا لشعوبهم البائسة؛ أو لأنهم جاهروا بانحيازهم لزنجيتهم، ودافعوا عن حقوق السود والأصالة الإفريقية.

فيلا أنيكولا بوكوتى

من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر أو التفضيل الموسيقى النيجيرى فيلا أنيكولا بوكوتى، والعبقرية الموسيقية صمويل كولى ريدج السيراليونى الأصل، وهو من الموسيقيين الإفريقيين القليلين الذين عرفت أسماؤهم مع انتشار موسيقاهم.

وفيلا أنيكولا بوكوتى له شهرة عالمية، وألبوماته تملأ أوروبا، ومبيعاتها تحقق أعلى توزيع، وهو يصنف على أنه من أعظم موسيقيى القرن العشرين، كان شخصية فريدة

ومثيرة للجدل، أذيع خبر وفاته أكثر من مرة قبل أن يتوفى فعلاً فى نهاية شهر أغسطس عام ١٩٩٧م.

عندما سقط فيلا مريضًا فى يونيو ١٩٩٧م رفض أن يفحصه الأطباء، ورفض نصيحة أخاه الأكبر وزير الصحة النيجيرى السابق بالانتقال إلى المستشفى إلا فى أيامه الأخيرة عندما أجبر على ذلك، ورفض أيضًا أن يتعاطى الدواء الغربى؛ فكان يزدريه ويكتفى بعلاج الوصفات الشعبية والأعشاب.

ولد فيلا فى أكتوبر عام ١٩٣٨م لإحدى عائلات اليوروبا المعروفة، وكان والداه من المناضلين ضد الاستعمار بعنف، عمل أبوه واعظًا (وهو الذى أسس اتحاد المعلمين النيجيريين)، وكانت أمه «فوغلايو» شخصية بارزة فى الحركة الوطنية، ومن أنصار كوامى نكروما، وقد استقبلها الرئيس ماوتسى تونج فى الصين، وحصلت على جائزة لينين للسلام، وهى أول امرأة نيجيرية تحوز رخصة لقيادة السيارات فى بلدها، وابن عمه الأديب المتمرد «وول سوينكا» الحائز على جائزة نوبل فى الأدب.

أرسله أبوه إلى لندن عام ١٩٥٩م ليدرس الطب، ولكنه بدل أن يسجل اسمه فى كلية الطب قيد اسمه فى كلية ترينتى للموسيقى، وكوَّن أول فرقة موسيقية له فى لندن سماها «كولا لابيدوس»، وآزره ابن عمه وول سوينكا الذى كان يدرس فى جامعة ليزر ببريطانيا، فكان يؤلف له الكلمات، وكان فيلا يلحنها ويغنيها.

فى المهرجان الأول للفن الإفريقى الذى أقيم فى نيجيريا على مدى شهر عام ١٩٧٠م، أدهش فيلا الحاضرين عندما وقف على المنصة وقال إن اسمه ـ شأن لغته ـ مستعار من السادة الذين استعمروه، أما اسمه الإفريقى اسم أسلافه الغالين فمفقود بلا رجعة؛ لذلك فقد قرر تغيير اسم عائلته «راموم» الذى يحمل لفظًا استعماريًا وجعل اسمه أنيكولابو، وهى كلمة تعنى بلغة «اليوروبا» الشىء الكبير الذى لا يمكن لكائن بشرى أن يغلبه، وأصبح اسمه فيلا أنيكولا بوكوتى.

حققت الموسيقى لفيلا شهرة وثروة ضخمة، وأغنيته الشهيرة «لماذا يعانى الرجال السود» كان لها تأثير عميق فى الضمير الإنسانى، ولكن تمرده ومواقفه السياسية هما ما جعل منه نجمًا كبيرًا عبر إفريقيا، وهو ما أضر به أيضًا، كما جعله اعتزازه بسواده

وبالفلسفة والأصالة الإفريقية شخصية مخيفة لكثير من الأوروبيين، وفى الوقت نفسه جعله محبوبًا وبطلاً بين أهله ومواطنيه، وهذا ما أزعج السلطة النيجيرية وأدى بها إلى سجنه. ولكن السجن لم يسكت صوته ولم يدفعه للصمت، وظل شوكة فى حلق النظم العسكرية النيجيرية المتعاقبة حتى وفاته.

فى عام ١٩٧٤م اقتحم البوليس نادى شراين الموسيقى الذى كان فيلا يملكه؛ وذلك بادعاء البحث عن المخدرات، وكان نادى شراين واحة للحرية جعله فيلا أشبه بحديقة هايد بارك، فيه تتجمع المعارضة، ويجد فيه المرء ساحة للفضفضة والاعتراض والحلم. وبعد الإفراج عن فيلا قرر أن يجعل اسم النادى «جمهورية كلاكوتا» إمعانًا فى معارضته للنظام العسكرى وازدراء له، وفى عام ١٩٧٧م اقتحم جنود الرئيس النيجيرى السابق أوباسنجو «جمهورية كلاكوتا» واعتقلوا فيلا مرة أخرى، وكانت حجتهم هذه المرة رفضه الاشتراك فى مهرجان الموسيقى الإفريقى الذى جرى فى لاجوس، وخلال هذا الاقتحام قذف الجنود بأمه من النافذة مما تسبب فى مقتلها، وأحدثوا به إصابات أضعفت من قدرته على عزف السكسافون بعد ذلك.

وبعد الإفراج عنه نفى إلى غانا، ولم يعد فيلا إلى نيجيريا إلا بعد أن ترك العسكر السلطة سنة ١٩٧٩م وتولى الحكم شيخوشاجارى، ولكن هذا الحكم المدنى كان قصير العمر، وسرعان ما قام الجنرال «أباشا» بانقلابه، وعادت نيجيريا من جديد فى قبضة العسكر، فاختلف «فيلا» مع النظام العسكرى وأعلن معارضته له، وشكل حزبا سياسيّا سماه حزب الحركة الشعبية المرتقبة. وخاض معارك ومشاكل مع السلطات مما حدا بها إلى اعتقاله هو ونحو مائة شخص آخر. وعندما تدهورت حالته الصحية أفرجت عنه، وذكر متحدث باسم الحكومة أن «فيلا» يحتاج إلى جراحة خطيرة، وأن الحكومة ستتكفل بإجرائها؛ ولهذا رفض فيلا العلاج حتى لا يكون لأحد فضل عليه. ومات كرجل حر فى يوم عيد ميلاد أخيه الأصغر بيكو الذى يقضى الآن حكمًا بالسجن مدته خمسة عشر عاما بتهمة محاولة التآمر بالإطاحة بحكومة الجنرال «أباشا» العسكرية.

صمويل ريدج

وإذا كان «فيلا» قد لقى الاضطهاد من حكام بلده، فإن صمويل ريدج الذى سبقه

فى الزمان لقى الاضطهاد من العنصريين البيض الذين عاش بينهم، وعندما دفن جثمانه عام ١٩١٢م حاولوا أن يدفنوا معه أعماله وموسيقاه ويمحو ذكراه من الوجود. ونجحوا فى أن تصبح هذه العبقرية الموسيقية غير معروفة، وهو الذى كان يوصف من جانب نقاد وقته «أعظم الموسيقيين حساسية»، «إنه من الطراز الأول مع بتهوفن وبرامز وفاجنر»، «الموسيقى مبعوث السماء». ولكن لماذا عومل صمويل بهذه القسوة؟ السبب الوحيد أنه كان إفريقيّا أسود عاش فى بريطانيا.

أعاد المجد والتقدير لصمويل كولى ريدج فيلم وثائقى أعده مخرج من جنوب إفريقيا هو «إيان هول» لقناة التليفزيون البريطانية.

وإيان هول مؤلف موسيقى وعالم متمكن، وله موقف سياسى. قدم الفيلم بقوله: «إن التجاهل غير الطبيعى لمنجزات صمويل كولى ريدج يثير الشك؛ لأنها منجزات لا يمكن أن تتجاهل أن صمويل سقط ضحية لمناخ أيديولوچى كان سائداً فى وقته، وهو المفاهيم النخبوية والعنصرية للطبقة الحاكمة البيضاء فى عصره التى صممت على إلغاء الوجود الأسود والإنجاز الأسود. إلغاء ذلك من مسرح التاريخ».

والحقيقة أن الفيلم هو عمل أكثر من أن يوصف بأن يكون مجرد توثيق لموسيقى عظيم، بل كان شهادة عن الشجاعة غير العادية لصمويل ريدج فى مواجهة المعارضة الكاملة له، والكراهية والتحامل لكونه أسود. فقصته هى قصة بطولة بشرية.

ولد صمويل ريدج عام ١٨٧٥م لأب من سيراليون وأم إنجليزية، وكان أبوه دانيال قد ذهب إلى إنجلترا ضمن جماعة من الشباب الإفريقى لطلب العلم، وبعد أن أكمل الأب دراسة الطب فى الكلية الملكية للأطباء والجراحين وهى ذات مستوى عال، عمل كممارس عام فى لندن وكان طبيبًا ممتازًا، ولكنه أدرك أن الطريق مستحيل فى مواجهة الكراهية التى اتسم بها العصر الفكتورى فى إنجلترا للأجانب؛ وبخاصة السود، واكتشف الأب أن الكثير من الإنجليز وقتها معبئون بالتحامل الإمپريالى، ولا يرتاحون لفكرة أن زنجيّا يعتبر مساويًا لهم؛ ولأنه لن يستطيع أن يتغلب على ذلك فقد ترك إنجلترا عائداً إلى بلاده، وترك زوجته وابنه الوحيد صمويل يواجهان المناخ العنصرى.

شب الطفل الأسود الصغير ونما وسط بحر من الوجوه البيضاء، وبينما كان زملاؤه الأطفال ومن هم فى مثل سنة ينطلقون ويلعبون كان هو ينزوى جانبًا فى فناء المدرسة

يلعب على الكمان التى لم تكن تفارقه أبدًا، وشعر مدرس الموسيقى بموهبته فطلب منه أن يستمع إلى عزفه، ورغم خوف الطفل الذى لم يكن يتعدى سبع سنوات وخجله وشعوره بالدونية بسبب لونه وباعتباره أجنبيًا، فقد عزف قطعة صعبة على الكمان، عزفها عزفًا صحيحًا وبغير أخطاء، ففرح به مدرسه وعرض عليه أن يعطيه دروسًا بغير مقابل. ومن هذه اللحظة بدأت الظاهرة الموسيقية تتشكل لتظهر فى بواكير القرن العشرين.

ومع هذا التميز ظلت حياة صمويل صعبة وغير مريحة، فقد كان هو التلميذ الأسود الوحيد فى المدرسة، وكان يواجه بكراهية ومحرجات شديدة، كان التلاميذ ينادونه بلفظ «المتفحم» وحاول بعضهم أن يشعل النار فى شعره ليعرف ما إذا كان شعره الفلفلى قابلا للاحتراق أم لا. ولكن بقدر هذا الخجل والحساسية البالغة لوضعه كان يتفوق عليهم، وكان الوحيد الذى يختار لكى يقدم معزوفاته لضيوف المدرسة وفى حفلاتها.

عندما أنهى المرحلة الأولية ووجه بمشكلة أخرى، فقد كان عليه أن يحصل على النقود لإعاشته، وفى الوقت نفسه عليه أن يستمر فى دراسته الموسيقية.. والحقيقة أن أمه الإنجليزية التى وقفت دائمًا كالصخرة بجواره كفلت له تعلم العزف على البيانو لتطمئن أكثر على مستقبله الموسيقى.

وفى هذه الفترة الحرجة فى حياة الصبى شاء القدر أن يسمعه أحد المياسير فى لندن هو الكولونيل ووترز الذى أعجب بإمكانيات الصبى وعرض أن يتكفل بنفقات تعليمه الموسيقى.. وواجه الكولونيل معارضة ونقدًا شديدين من الصحافة ورجال المجتمع الذين حذروه من هذا العرض، وقالوا له إن نمو العقول الزنجية يتوقف فى مرحلة مبكرة، ومن ثم فإن مساعدته لصمويل هى تبديد للجهد والمال.

ولكن الكولونيل مضى فى تقديم عونه وبعث بالصبى إلى الكلية الملكية الموسيقية، ورفض فى البداية مدير الكلية قبوله قائلاً: إن عنصر الصبى يجعله غير قادر على تفهم الدرجات العليا للفن والموسيقى، وتحت ضغط الكولونيل وافق المدير على قبوله.

ولكن هذه الضغوط والظروف التى واجهت صمويل جعلته يتعثر فى الدراسة بما بدا معه أن المظهر العرقى أثبت صوابه وصحته.

ولكن الأقدار أخذت بيده، فقد سمعه بالمصادفة السير «تشارلز نفورد» الذى تأكد فور سماعه أنه وضع يده على عبقرية تتشكل فتبنى هذه الموهبة الطبيعية، وعلمه كيف يكون الانضباط والانتظام، وكيف يسيطر على نفسه ويتخطى الصعاب من أجل أن يحقق هدفه.

وبدأ صمويل فى التطور.. لم يكن يرضيه إلا بلوغ المنتهى، كان يلقى فى النار أصول مؤلفاته الموسيقية، ليحث نفسه على الوصول إلى مستوى أحسن، وكان أصدقاؤه يعارضون سلوكه هذا، فكان يرد بأن الأعمال التى لا ترضيه تمامًا يجب أن تلقى فى النار، مع أن هذه المسودات كانت على قدر كبير من العبقرية، وقد التقط أحدهم واحدة منها وأنقذها من الحريق، وأصبحت هذه المسودة فيما بعد من أحسن وأكثر المؤلفات الموسيقية شعبية.

ظل صمويل يؤلف المقطوعة تلو الأخرى، كان مصير غالبيتها النار حتى صار بارعًا فى التأليف. وفى إحدى المرات قال لقد آن الأوان لكى أتقدم للشهادة الموسيقية ونالها بجدارة. وحصل على جائزة ليزلى ألكسندر عامين متتاليين، وذاع اسمه وبلغ صيته كل الدوائر المهمة فى عالم الموسيقى.

جاءته الفرصة الكبرى من الموسيقى الإنجليزى الكبير السير إدوار جار، فقد طلب من السير أن يؤلف قطعة موسيقية لتعزف فى أحد الأحداث الموسيقية الكبرى؛ ونظرًا لانشغاله وارتباطه بعروض أخرى ولتحمسه للشاب صمويل فقد كلفه بعملها بدلاً منه.

أدرك الموسيقى الإفريقى أن هذه هى فرصته الذهبية فاشتغل طويلاً وبجدية حتى أعد القطعة المطلوبة، وقاد العزف فى احتفال «جلوسستر» الذى حضره صفوة المجتمع والموسيقيون الأوروبيون الكبار، ورغم أنه ورد فى الإعلانات أن قائد الأوركسترا سيكون أنجلو إفريكان، فقد ظن الناس أن ذلك يشير إلى رجل أبيض ولد فى إفريقيا، ومن ثم كانت المفاجأة عندما وقف صمويل أمام الجمهور ورأوه رجلاً أسود البشرة

مجعد الشعر، فساد صمت رهيب ثم بدأ الهمس يتردد أن القائد زنجى، وأخذوا يتشككون فى مقدرته، ويتساءلون ما نوع الموسيقى التى يمكنه أن يعزفها.

ثم بدأ صمويل يعزف مقطوعته الموسيقية.. كانت ملهمة وجريئة وجديدة ومتناغمة بشكل أذهل الحاضرين، وفى نهاية العرض أخذ تصفيقهم يصم الآذان، واستعيد العزف مرة ومرة أخرى، وتحقق الجمهور من أن نجمًا جديدًا كبيرًا قد ولد.

وصل صمويل إلى جلوسستر موسيقيًا مغمورًا وتركها وهو عبقرية مشهورة. فكتبت عنه صحف بريطانيا وأوروبا وأمريكا. وذكرت قصته ومدى ما حصل عليه من نجاح، وتوالت عليه الدعوات كثيفة وسريعة، خاصة بعد أن عزف فى قاعة ألبرت بإنجلترا أمام الآلاف المؤلفة، وأصبح نجم حفلات الأوساط الاجتماعية العليا، واحتفى به النقاد. وألف المزيد من القطع الموسيقية، وقاد فرقًا كثيرة، وعين أستاذًا للتأليف الموسيقى فى كلية ترينتى، وأستاذًا للنغم فى مدرسة الموسيقى والفن، وقال عنه الناقد الموسيقى الكبير فى ذلك الوقت «چوزيف بنت»: «إن صمويل كولى ريدج هو رجل الساعة».

وعلى الرغم من هذه الألمعية ونجاحات صمويل المتتالية، فقد ظل فى أعين الكثيرين وبعض النقاد هو الزنجى الملون. فالمجتمع الأبيض والعنصرية التى كانت سائدة فى عصره لم تقبله أبدًا. أدرك صمويل ذلك جيدًا كما سبق أن أدركه أبوه، وتحقق من أن الخلاص ونجاحه الحقيقى فى العودة إلى جذوره التى انقطع عنها، وأن عليه أن يسعى لكى يعرف هويته الإفريقية ويقاتل لإظهارها والفخر بها، فهذه هذه رسالته الحقيقية. وحثه على ذلك صديق عمره الدكتور ويليام دى بوا الأب الروحى للجامعة الإفريقية وبالذات كتابه «روح الشعب الأسود» الذى وصفه صمويل بأنه أعظم كتاب قرأه على وجه الإطلاق.

ترك صمويل بريطانيا، وقام بثلاث جولات ناجحة فى الولايات المتحدة، وقابل فيها فنانين ومفكرين سودًا، وافتخر بأسلافه، ولكنه لم ينس قط مدى الظلم الذى مورس ضده والذى ذاقه فى حياته، وقاد فرقًا موسيقية فى الولايات المتحدة، وكان من الممنوع وقتها على السود أن يشتركوا فى مثل هذا النشاط. ودعاه على العشاء الرئيس الأمريكى «تيودور روزڤلت»، وقدم صمويل له مظلمة عن السود الأمريكيين.

وخرج من دائرة الموسيقى الكلاسيكية الغربية التى برع فيها، وبدأ يؤلف الأغانى القوية التى تتحدث عن الكبرياء المفقود للعرق الأسود، وحاول أن يصنع للموسيقى السوداء ما صنعه «جريج» للموسيقى النرويجية، وما صنعه «دفوراك» للموسيقى البوهيمية. وأنتج ٢٤ لحنًا زنجيًا، وصار واحدًا من أشهر الموسيقيين الغنائيين، ولكنه لم يحصل على قرش واحد من حقوق التأليف، فلم يكن أبدًا طامعًا فى ثروة؛ إذ كان همه الشاغل هو أن يتحدث عن حقوق السود.

فى بداياته.. كان يقول عن نفسه إنه مواطن بريطانى أولاً وأسود ثانيًا، فصار يعتبر نفسه أسود فى الأساس، وكتب بحماس فى الصحف البريطانية يدحض بعنف الدعاوى التى تحاول أن تثبت نقص الرجل الأسود، ووهب نفسه للعمل الكبير وهو إحياء الزنوجة من خلال الفن. وفى حياته اللامعة القصيرة كتب ٨٢ قطعة موسيقية أغلبها فى هذا الشأن، ومات شابًا وهو فى السابعة والثلاثين من عمره.

❊ ❊ ❊

الروائى الصومالى
نور الدين فرح.. البساطة المركبة

فاز الروائى الصومالى «نور الدين فرح» بجائزة نوستادز، ورغم أن قيمتها لا تزيد عن ٤٠ ألف دولار إلا أنها تعتبر لدى الكثيرين فى مجال الآداب الجائزة الدولية الأرفع مستوى بعد جائزة نوبل. ونور الدين فرح يعد الآن من أكبر كُتَّاب الرواية الإفريقيين وواحداً من أوسع المؤلفين الإفريقيين انتشاراً وقراءة، وترجمت أعماله إلى أكثر من عشر لغات.

يوصف فرح بأنه كاتب أنثوى، فهو يسجل بتعاطف وشاعرية أحاسيس المرأة فى المجتمعات التى يسودها الرجال، والتى لم تكتسب فيها النساء بعد احترامهن ولا حرياتهن.

عرفت فرح عن قرب؛ إذ التقيت به فى مؤتمر القمة الإفريقى الذى عقد فى مقديشيو عام ١٩٧٤م، وطوال أيام المؤتمر لم يفارقنا، كان فرح شاباً فى التاسعة والعشرين من العمر، فهو من مواليد أوجادين عام ١٩٤٥م. . شخص نحيف ذو وجه بشوش وابتسامة دائمة وعينين لامعتين تحويان شيئًا أكثر من الذكاء، تحويان الحساسية المفرطة. ورغم بشاشته وانطلاقه كان متبرمًا ساخطًا متوجسًا من الرئيس سياد برى ونظامه. . فى ذلك الوقت كان برى فى أوج مجده، رجل دولة، وأول رئيس صومالى يسعى لتوحيد أشطار بلده الممزق، وبدا زعيمًا إفريقيّا يناضل من أجل تحرير الصومالات الخمس وإقامة دولة موحدة، فكان يحوز الإعجاب والتأييد من خارج بلده.

دارت بيننا أحاديث طويلة حول مستقبل الصومال وحرية الفرد والديمقراطية وحكم العسكر، كنت متفائلة وكان فرح متشائمًا، كان يصف الرئيس الصومالى بأنه رجل

دعاية أكثر ما يكون رجل دولة، وأنه يبدد ميزانية البلاد على المظاهر أكثر مما يوجهها فى إصلاح أوضاع الصومال، وضرب مثلاً بالمكان الذى كنا نقيم فيه، وهى مدينة كاملة بناها سياد برى خصيصًا لمؤتمر القمة الإفريقى، وسماها أفريكا فيلدج (أى قرية إفريقيا).

سألت فرحًا يومها عندما عرفت أنه يكتب بالإنجليزية لا العربية التى يجيد الحديث بها قال: «إننى لم أتمكن قط من دراسة العربية، رغم أن اللغة السواحيلية أغلب ألفاظها عربية».

أهدانى يومها قصة قصيرة لأنشرها فى مجلة «روزاليوسف» أو مجلة «صباح الخير» حيث كنت أعمل، أو فى أى مكان آخر؛ فقد كان يصبو أن يعرفه القارئ المصرى، ولكنى لم أتمكن من تحقيق أمنيته؛ فأين رئيس التحرير الذى يقبل أن ينشر قصة لكاتب مغمور من أبناء العالم الثالث لم يثبت نفسه بعد.

ثم علمت أن فرحًا ترك الصومال وحاول يومًا أن يعود إليه، ولكن شقيقه نصحه عندما هاتفه من روما يطلب لقاءه فى مطار مقديشيو قائلاً: «انس الصومال لقد مات، ليس هناك صومال فيما يتعلق بك».

والحقيقة، أن فرحًا كان شديد الكراهية للرئيس برى وناقدًا بعنف لحكمه الديكتاتورى، وتخصصت كتاباته فى كشف الأوضاع الجائرة لنظامه؛ لذلك لم يكن أمامه سوى خيار من ثلاثة خيارات: وهو إما أن يتوقف عن الكتابة، أو يسجن (وربما يقتل)، أو يرحل عن الصومال ويكتب من المنفى، ولحسن حظ الأدب الإفريقى أنه اختار البديل الثالث، فكان فرح من أوائل الكتاب الذين نفوا أنفسهم بأنفسهم.

ومنذ عام ١٩٧٤م حتى الآن ينتقل نور الدين فرح فى عدد من البلدان الإفريقية، منها جامبيا، ونيجيريا التى تزوج منها، وأوغندا، يقتات من دخل كتبه الذى يكاد يكفيه، يعيش يومًا بيوم وصارت حياته المادية دائمًا صعبة، فى حين كان يمكن أن يختار العيش فى أوروبا أو أمريكا ويكسب راتبًا كبيرًا إذا عمل محاضرًا كما عرض عليه مرارًا، وكان هذا سيزيد انتشاره وتألقه كمؤلف روائى. رفض فرح كل ذلك واختار الطريق الصعب، ولكنه الطريق الأشرف، لقد فضل أن يعيش بجذوره؛ ولهذا تشم فى رواياته دائمًا رائحة الأرض الإفريقية، والناس فى كتبه حقيقيون، فلم يكتب نور الدين

فرح من برج عاجى قط، وظلت كل أعماله تدور حول الصومال والتركيب الاجتماعى فيه، وجاء وصفه للمجتمع الصومالى وتحليله لعناصر الأوضاع السياسية للأمة وأشكالها أمرًا مبدعًا، فإن عمق المعرفة التى صور بها لوحات الشعب الصومالى جعلت المحللين السياسيين المحترفين يبدون سطحيين بالمقارنة بتحليلاته، رغم أنه لم تطأ قدماه أرض الصومال منذ أكثر من ربع قرن.

يحلو لنور الدين فرح التنويه دائمًا بهويته البدوية، وبداوته لا تتبدى فقط فى تعدده اللغوى، فهو يتكلم الأمهرية والصومالية والإيطالية والإنجليزية إلى جانب العربية، وإنما فى تجاربه الحياتية، ورواياته يصعب تصنيفها؛ فهى تعتبر رمزية إلى حد ما، وتعتبر أيضًا نوعًا من الواقعية الخيالية، وهذه النوعية من الكتابة جعلت فرحًا روائيًا صعبًا يتطلب من قارئه سعة فى الخيال. سئل يومًا: لماذا هو كاتب مركب معقد؟ فأجاب: إذا كانت رواياتى مركبة معقدة، فذلك لسبب أن المجتمع الصومالى الذى أكتب عنه مجتمع مركب.

أولى روايات فرح «من ضلع أعوج» كتبها وهو يدرس الفلسفة فى جامعة شانديغاى بالبنجاب عام ١٩٦٨م، ونشرت عام ١٩٧٠م. بطلتها عبلة التى تهرب من إحدى قرى الأوجادين بعد أن باعها جدها لصديق لتعمل خادمة لديه، وتذهب إلى ابن عمها فتواجه المصير نفسه وتعتبرها زوجته الحامل خادمة لها. وعندما لم تعد زوجته بحاجة إليها بعدما ولدت يكرر ابن العم ما فعله الجد ويبيعها إلى سمسار عجوز، فتهرب من البلد كله إلى العاصمة مقديشيو، وهناك تقابل الشاب أويل ابن المدينة الإيطالى الثقافة الذى يتزوجها بعد اغتصابها، ثم يتركها ويسافر فى بعثة دراسية إلى روما، وتكتشف عبلة أن أويل على علاقة بفتاة إيطالية فتقرر الانتقام، وتتزوج سرًا بعجوز ثرى مزواج، ولم يدم الزواج، وتصارح عبلة العجوز وهى تهجره: أنا زوجة أخرى لك، ولكن لى أنا أيضًا زوج آخر، فنحن إذن سواسية. وهذه الرواية رغم سذاجتها تحمل فى طياتها دعوة لتحرير المرأة من رق عبودية الأسرة والتقاليد.

روايته الثانية «إبرة عارية» ١٩٧٦م، هى أكثر نضوجًا، تدور حول مدرس صومالى وعد شابة إنجليزية بالزواج حين كان يدرس فى بلادها، وبعد عامين تزوره فى مقديشيو آملة أن يفى بوعده. ويتناول فرح بحساسية مرهفة معضلة زواج الأفارقة بغربيات فى حالتى النجاح والفشل.

وفى ثلاثيته المسماة «تنويعات فى موضوعات ديكتاتورية إفريقيا» وهى ثلاث روايات نشرت أجزاؤها فى بريطانيا والولايات المتحدة، أولها «حليب حلو ومر» وصفها فرح بأنها عن الذين لا يساومون. تكشف الرواية جوانب الحياة الصومالية القاتمة عندما يغيب الرشد، ويضحى التعذيب ليس وسيلة للاستنطاق وإنما طريقة حياة عبثية. الرواية عن حكام الصومال الذين يعتقلون الناس ويحبسونهم دون أمر قضائى ولا محاكمة، ويسومونهم سوء العذاب داخل السجون، يبحث بطلها عن شقيقه التوأم «سوبان» الذى كان يعمل مستشاراً قضائيّا للرئيس الصومالى، ويبدو أن «سوبان» اغتيل مسموماً وهو فى مأدبة رسمية، إلا أن النظام الحاكم يحوله إلى شهيد بعد تحريف أقواله وهو على سرير الموت.

الرواية الثانية فى الثلاثية «سادرين» بطلتها صحفية متحررة كتابتها محظورة فى الصومال، تهجر زوجها الضعيف الشخصية الذى ارتضى لنفسه أن يصبح وزيراً، وكانت بذلك تهرب من بيت الزوجية ومن حماتها التقليدية النظرة التى هددت مراراً بختان حفيدتها.

أما ختام الثلاثية «اقفل يا سمسم» فهى إنصاف للنموذج الأبوى الخير، بطلها شيخ متدين مناضل قديم يعيش مع أحفاده فى وئام يجاهر برفض الديكتاتورية، ويدفع صغاره للانضمام للمعارضة النشطة للنظام.

وجاءت رواية «الهبات» أو العطايا التى تدور أحداثها فى أواخر السبعينيات، جاءت سياسية مباشرة موجهة مليئة بالوثائق والبيانات المنسوبة إلى وكالة الأنباء الصومالية أو منقولة من صحف صومالية عن التصحر والجفاف والمجاعة والمعونات الأجنبية، مع أن هذه البيانات لا تشكل جزءاً عضويّا فى البناء الروائى، وإنما حشرت فى سياق كتابات بطل الرواية الذى يعمل صحفيّا. . وقد استلهم فرح فكرة الرواية وهو فى جامبيا عندما منحت الحكومة الأمريكية للرئيس الجامبى هبة كبيرة من الأرز بهدف أن يستغله الرئيس كرشوة للناخبين فى انتخابات الرئاسة، وأدى هذا بأهالى جامبيا إلى العزوف عن زراعة الأرز المحلى والاعتماد على أرز المعونة.

بطلة الرواية «دنيا» كانت هى الأخرى هبة أهداها والدها إلى شيخ مسن ضرير أنجبت منه توأمين، وتتزوج بعد وفاته من طارق الصحفى الصومالى الذى يهاجم

التدخلات الأجنبية المتمثلة فى المعونات، فهو يعتبرها سلاح الدول الغنية لتدمر به الشعوب الفقيرة وتفقدها القدرة على العيش بكرامة، ولكن هذا الزوج الذى يتشدق بالشعارات الثورية كان مدمنًا غير قادر على تحمل المسئولية، فتتركه «دنيا» وتعمل ممرضة لتعول أبناءها. ثم تتعرف على «باسوسو» الشاب الطيب البالغ الثراء الذى عاش فى الولايات المتحدة ربع قرن، وعاد إلى الصومال ليساعد طوعًا فى بناء بلده. ويعجب «باسوسو» بشخصية دنيا، ولكنه يجد صعوبة فى الاقتراب منها، فقد باتت تستريب من عطايا وهبات ذوى النفوذ والجاه، وتتفرغ دنيا لتنشئة عائلتها الصغيرة بالاعتماد على النفس ورفض الهبات. وتوصى أن يكتب على قبرها «هنا ترقد دنيا التى لا تثق بمانحى الهبات». وقد نشرت هذه الرواية عام ١٩٩١م قبل الحرب الأهلية الصومالية وقبل المجاعة.

أما عن أمنيات الكاتب الصومالى الفائز بالجائزة الأدبية فيقول: «أريد أن أعود إلى الصومال وأنشئ منظمة للكُتَّاب، وأريد أن أصنع أفلامًا، وأريد أن أنتج كتابًا رخيصًا، وأن أنعش خيال الناس». وعندما سئل: لو دار الزمن إلى الوراء هل كان يريد أن يكون كاتبًا؟ أجاب بحسم: «لا، إن الكتابة مؤلمة وصعبة، كنت أختار أن أكون نجارًا».

* * *

نادين جورديمر
الفائزة بجائزة نوبل

نادين جورديمر كاتبة إفريقية بيضاء حصلت على جائزة نوبل للأدب لعام ١٩٩١م، وهى ثالث كاتب إفريقى يحصل على جائزة نوبل للأدب بعد الأديب النيجيرى «وول سوينكا» الذى فاز بها عام ١٩٨٦م، ثم الأديب المصرى «نجيب محفوظ» عام ١٩٨٨م. وبعدها جاءت نادين لتتوج بفوزها دور المرأة وجهودها فى المجتمع الدولى بشكل عام، وفى إفريقيا على وجه الخصوص.

ونادين جورديمر وإن كانت بيضاء البشرة، فهى إفريقية المولد والعقيدة. وهبت نفسها للدفاع عن إفريقيا وكشف العنصرية البغيضة التى ينتهجها بلدها. وتعد واحدة من أكثر الكُتَّاب كشفًا لحقيقة الحياة فى بلدها جنوب إفريقيا، وبسبب صدقها وصراحتها وقوة دلالاتها ومنطقها صودرت كتب عديدة لها.

ونادين هى أول سيدة تحصل على جائزة نوبل خلال الـ ٢٥ سنة الأخيرة، وسابع امرأة تحصل على هذه الجائزة فى الأدب خلال تسعين عامًا هى عمر الجائزة، وهى أول من يحصل عليها فى الأدب فى جنوب إفريقيا.

ولدت نادين فى جنوب إفريقيا عام ١٩٢٣م، وأنتجت عشر روايات وأكثر من ١٠٠ قصة قصيرة على مدى الستين عامًا، وأول مجموعة من قصصها نشرت عام ١٩٤٩م. وهى تتهم بأنها شديدة العنف على الأوضاع فى جنوب إفريقيا، وترد على ذلك قائلة بأنها لا تهتم بالنظرية السياسية، ولكنها بوصفها كاتبة تهتم بكيف يتشكل الناس من خلال النظام الاجتماعى الذى يحيون فيه، وتصف النظام فى بلدها بأنه حاد ومتأزم.

وصف خطاب ترشيح الأكاديمية السويسرية بمنح نادين جائزة نوبل بأنها تحصل عليها من أجل كتاباتها التى تبلغ القمة فى الروعة؛ ولأنها تكتب بشكل مكثف وبصدق عن الجوانب الشخصية البالغة التعقيد، والعلاقات الاجتماعية فى الأوضاع التى تحياها.

وجائزة نوبل ليست أول جائزة دولية تحصل عليها «نادين»؛ فقد نالت العديد، منها جائزة بوكر لعام ١٩٧٤م، وجائزة مالابارت الإيطالية، وجائزة نيللى شاس الألمانية، وجوائز أخرى من فرنسا.

عندما سمعت نادين خبر حصولها على جائزة نوبل علقت مندهشة: «إننى موجودة فى كشف المرشحين منذ أمد طويل، وكنت أستبعد مرارا». وقد هنأها ديكليرك الذى كان يرأس جنوب إفريقيا وقتها، ووصفها بأنها إنجاز غير عادى، وأنها أمر يشرف جنوب إفريقيا. وهذا من دواعى السخرية؛ لأن الكاتبة حازت الجائزة بسبب نقدها اللاذع لنظام ديكليرك لسياساته العنصرية.

ومن أجل هذا النقد اللاذع والواضح فى كتابات نادين صادر نظام جنوب إفريقيا ثلاثة من أهم كتبها وهى: «عالم الغرباء»، و«العالم البرجوازى»، و«ابنة برجر» بحجة أنه هجوم شامل على جنوب إفريقيا.

ظهرت أول رواية كتبتها جورديمر «عالم الغرباء» عام ١٩٥٣م فى وقت التحولات الاجتماعية فى جنوب إفريقيا، وأوضحت نوعًا من التحليل للأوضاع المكتوبة وغير المكتوبة لدى الجماعة البيضاء، وكشفت القناع عن زيف الليبرالية البيضاء، وعرت سيادة النزعة العنصرية بحسبانها الفلسفة السياسية لحركات المعاداة للتفرقة العنصرية خلال الخمسينيات.

وبسبب هذا الحس الاجتماعى النابض لمأساة شعب جنوب إفريقيا الأسود صودرت هذه الرواية، ولكن كاتبتها اكتسبت بها صداقة النخبة المثقفة للكُتَّاب السود، ومن مناقشاتهم وحواراتهم نضجت أفكار نادين وتفتحت سياسيًا.

كانت أعوام الستينيات ذروة القمع العنصرى فى جنوب إفريقيا، وفيها صدرت قوانين الفصل العنصرى التى كرست العزل بين الأجناس، واختفى من الساحة الثقافية أصدقاء نادين المثقفون السود إما بالنفى أو الموت، وبتأثر هذه الأوضاع أصدرت نادين عام ١٩٦٣م روايتها «حادثة حب» التى تتعرض لموضوع فشل النزعة الإنسانية من الوجهتين الشخصية والاجتماعية. وإن سطرًا من سطور الرواية يلخصها كلها فى قول: «ما دام القانون باق لم يتغير فلا شىء يمكن أن يأتى بالتضامن والتماسك فى العلاقات الإنسانية».

ومن هذه النقطة، فإن موضوعات جديدة بدأت تطفو على سطح روايات جورديمر، العنف والمقاطعة اللذان يعتبران من علامات الطريق فى الستينيات انعكست على رواية جورديمر الرابعة «العالم البرجوازى الراحل» التى صدرت عام ١٩٦٦م تناقش المبادئ المثالية الساذجة والرومانسية للمخربين، وهم جيش الشباب الأبيض، وكانت النغمة الرئيسية لها هى إسقاط الأوهام.

وفى عام ١٩٧١م أصدرت روايتها «ضيف الشرف» لتتابع هذه الصحوة السياسية والأيديولوچية. لقد كتبت عن بلد إفريقى لم تسمه كانعكاس للشعوب بفقدان الأمل فى الوطن. وكشفت الرواية عن آليات الاستعمار الجديد وعن الخيانة المتضخمة فيه.

ومع ظهور حركة الوعى الأسود فى السبعينيات التى قادت إلى انتفاضة سويتو عام ١٩٧٦م، تلك الانتفاضة التى تعتبر علامة تحول فى النضال الإفريقى من الكفاح السلمى إلى الكفاح المسلح. انحازت نادين بشكل صريح ـ وأكثر مما كان من قبل ـ إلى قضية السود. وكشفت فراغ النزعة الليبرالية البيضاء، وكانت تقول: إننى بيضاء وراديكالية من جنوب إفريقيا، وأرجو ألا تدعونى ليبرالية.

وفى رواياتها «ابنة برجر» عام ١٩٧٩م و «شعب يوليو» عام ١٩٨١م و «رياضة الطبيعة» عام ١٩٨٩م كشفت عن المشكلات التى أظهرها الوعى الأسود الجديد، والدور الذى يمكن أن يلعبه البيض فى جنوب إفريقيا المتحررة. وتحدثت فى رواية «شعب يوليو» بصفة خاصة عن العلاقات بين النساء والرجال.

إن دأب نادين جورديمر وإصرارها على موقفها على مدى العقود الأربعة الماضية هو ما أوصلها إلى جائزة نوبل. ولكن تبقى حقيقة أن نادين ليست المرأة الوحيدة فى جنوب إفريقيا التى أنتجت أعمالاً رائعة فهناك عدد من الكاتبات الإفريقيات السود فى جنوب إفريقيا، ولا يقل إنتاجهن عن نادين، ولكن النظام العنصرى حال دون ظهورهن ووأد إنتاجهن، وأصبح مصيرهن إما فى المنفى أو السجون.

لا شك أن بشرة نادين جورديمر البيضاء كانت جواز المرور التى سمح لها بالوصول إلى جائزة نوبل.. فمتى ينهار هذا السد وتجد أعمال الكاتبات التقدير على اختلاف ألوانهن ومعتقداتهن وجنسياتهن.

الأب عيـروط
القـس الذى أحـب الفلاحين

فى أبريل ١٩٦٩م نقلت وكالات الأنباء خبر وفاة الأب عيروط، وكان لهذا النبأ دوى فى أوساط المثقفين ورجال الجامعة؛ ذلك أن هذا القس المصرى كان من أكثر أبناء جيله حبًا للفلاح المصرى الغلبان.

كتب عنه الدكتور حسين فوزى يقول: «إن الأب عيروط عاش طويلاً فى ريفنا، ودرس وحلل حياة ذلك المخلوق الفريد الذى قامت عليه الشخصية المصرية مدى آلاف السنين، والذى ثبت لى وأنا أعيد مطالعة تاريخ بلادى أنها هى صانعة التاريخ المصرى».

ولد لأب مهندس بمدينة القاهرة ١٩٠٧م ودرس بمدرسة العائلة المقدسة (الجيزويت) ثم سافر إلى فرنسا وحصل على شهادته هناك، ثم من «ليون». وعلى عكس ما يحدث غالبًا لدى المتعلمين الذين يفرون من الريف، وتتعلق آمالهم دائمًا فى العيش المستقر بالمدينة، ويعتبرون من سوء الطالع أن ترمى المقادير بأحد منهم إلى الحياة فى الريف ولو لعام أو عامين، وعلى عكس ما يحدث بالنسبة للمتعلمين ذوى الأصول الريفية أنفسهم ما أن يحصلوا على قسط من التعليم ويجربون حياة المدينة، حتى يحاولوا قطع كل صلة لهم بالريف، على عكس ذلك كله كانت حياة الأب هنرى عيروط اليسوعى ذى النشأة القاهرية والتعليم الفرنسى فى القاهرة وفرنسا، والطفولة الميسورة المرفهة. فإنه ما إن عاد من فرنسا بعد إكمال تعليمه حتى سافر إلى قرى صعيد مصر ليحيا مع الفلاح، ويحاول أن يدرس حياته وظروفه الاجتماعية وأسلوبه فى التفكير. كان هنرى كاثوليكيًا انضم إلى سلك الرهبانية فى طائفة الآباء اليسوعيين مدفوعًا بميله القوى لتكريس حياته لخدمة الآخرين، وذلك فى عام ١٩٢٦م. وطائفة الجيزويت أسست فى

القرن ١٦ فى أوروبا، وقدم مبشروها إلى الشرق منذ القرن ١٧، وتفرقوا فى أقطاره يشيدون الأديرة والمدارس، وبدأ نشاطهم بمصر فى القاهرة ١٨٧٩م، وفى الإسكندرية بعدها بسنتين.

من عادة المثقفين من رجال الدين أن تشغلهم أبحاث العقيدة، أو المقارنة بين الأديان، أو الصراع بين الفلسفة والدين، أو الخصومات الطائفية، ولكن الأب هنرى عندما سافر إلى الريف لإعداد رسالة الدكتوراه الذى اختار موضوعها عن الفلاح المصرى واحتك بالبيئة الريفية، وجد أن الجهل هو أقوى الحقائق وأبشعها التى تخيم على الريف. وقد أنهى بحثه عن الريف، ولكنه أحس أن رسالته لم تنته بإتمام كتاب أو دراسة. وكانت الدكتوراه ليست نهاية علاقته بالريف، ولكن بداية نشاط عملى استغرق حياته، وهو الاهتمام بإنشاء المدارس المجانية فى القرى النائية بأقاصى الصعيد. وأسس لهذا الغرض جمعية عام ١٩٤٠م أصبحت تدير الآن نحو مائة مدرسة فى الصعيد. وتبرع لهذه الجمعية بكل ما يملك، وكانت ثروته تقدر بحوالى ١٥٠ ألف جنيه، وهو مبلغ قيم فى ذلك الحين.

ولا شك أن إنشاء هذه المدارس لم يكن يتم بدافع شخصى بحت، إنما كان مخططًا ثابتًا اتبعته جميع البعثات التبشيرية فى مصر خاصة، والبعثات التبشيرية الأمريكية التى استهدفت نشر العقيدة البروتستانتية بين الأقباط، وركزت نشاطها فى الصعيد لهذا السبب، وكانت فى فترات كثيرة تلقى من جماهير القبط ومن الكنيسة القبطية الأرثوذوكسية مقاومة شديدة.

والنشاط نفسه مارسه الجيزويت والفرنسسكان وغيرهم. وكان بعض اهتمامهم بالأمر يرجع إلى أنه من الطوائف الكاثوليكية التى تحاول منع انتشار البروتستانتية.

ولكن الأب عيروط كان أكثر ما يهتم به فى إنشائه لهذه المدارس والإشراف عليها بعد ذلك هو الحرص على تنشئة الشباب على الصرامة والجد والإدراك القومى العميق. يصفه الدكتور حسين فوزى بقوله: أحسست خلف ذلك الوجه الباسم والعيون الساحرة والأدب الاجتماعى الجم، وفى طى الرداء الدينى إرادة إيجابية نحو الخير والإصلاح.

وكان هذا رأى كل من اتصل بالأب عيروط وكل من نعاه، وقد مات الأب عيروط فى الولايات المتحدة أثناء رحلته إليها لإلقاء بعض المحاضرات عن مصر، وتوفى وهو يتأهب للاحتفال بالقداس الدينى.

كانت رسالة الدكتوراه التى أعدها عن الفلاح المصرى عام ١٩٣٨م باسم «أخلاق الفلاح وعاداته» كانت من خير ما أنتجت القرية المصرية، ومن خير ما كتب عن الفلاح بهذا الشمول، والشعور الذى يمتزج فيه الاحترام بالفهم بالشفقة. لقد أشار فى كتابه إلى النهضة العلمية والفكرية والفنية فى مصر، وإلى المستوى الراقى للمثقفين المصريين، ولكنه لا ينسى بعد ذلك أن يوجه سؤاله المتشكك الحزين: هل أفادت الطبقة الدنيا من الشعب شيئًا من هذه النهضة؟ وهى التى لا تزال ترزح تحت وطأة الأمية.

يذكر الأب عيروط أن أطفال الفلاحين يبدون من الذكاء أكثر مما يبديه غيرهم من أطفال الأوروبيين، ولكن حين يكبرون ينطفئ هذا الذكاء، ويرجع ذلك إلى ما يخيم على البيئة الاجتماعية من جهل، وإلى العمل الجثمانى الرتيب المهلك المتكرر الذى يمارسونه، والذى يوقف نموهم العقلى بعد ذلك. كما يلاحظ أن النساء الفلاحات أكثر ذكاء من الرجال، وأن السبب ربما يرجع إلى أنهن أكثر ممارسة لشئون الحياة، فنمت عندهن قوة الملاحظة، بعكس الرجال الذين يسخرون لأعمال الحقل التى تعتمد على الجهد الجسمانى الآلى وحده.

وكتاب «الفلاحون» من أكثر ما اشتهر من الدراسات التى وضعت عن مصر، ألف بالفرنسية، وترجم إلى الإنجليزية والعربية والروسية، وأعيد طبعه ثمانى مرات. وكانت الطبعة الأخيرة سنة ١٩٦٨م زاد عليها المؤلف ونقحها بإشارة سريعة إلى ما استجد عن حياة الفلاح فى الثلاثين عامًا منذ صدور الطبعة الأولى. وجزء من قيمة الكتاب تعود إلى الظروف التى ظهر فيها، وفى أنه سجل فى هذا الكتاب كيف أن الملك فؤادًا ارتفعت ملكيته الزراعية فى فترة توليه الملك خلال عشرين سنة من ٨٥٥ فدان إلى ٥٨ ألف فدان، عدا أراضى الأوقاف التى سيطر عليها والتى تبلغ ٤٥ ألف فدان. كما سجل التقصير الفظيع الذى يتصف به كبار ملاك الأراضى وقتها من حيث الاهتمام بأراضيهم وبمن يعيشون فيها، والتى لم تكن لهم إلا أنها مصدر للدخل فقط بغير أى التزام يشعرون به نحوها ونحو الفلاحين، كما سجل إهمال الأحزاب المختلفة وقتها

للفلاح حتى أنها لم تُبْد أيامها أى محاولة لاقتراح قانون يهدف إلى حماية الفلاح، أو يحمى الملكية الصغيرة من التفتت، أو يحد من الملكيات الكبيرة. فى حين كان أجر الفلاح قرشين فقط فى أعمال تنقية دودة القطن سنة ١٩٣٦م. وتساءل: إن السخرة ألغيت رسميّا سنة ١٨٩٣م، ولكن هل تحرر منها الفلاح عمليّا؟ كما وصف ما يرزح تحته صغار الفلاحين من أعباء الديون التى يقترضونها من المرابين. وحتى القانون الذى صدر سنة ١٩١٢م ليحمى ملكية الفلاح الصغير صاحب الخمسة أفدنة فأقل من الحجز عليها ونزعها، هذا القانون تحول إلى عبء على الفلاح؛ إذ امتنعت البنوك عن إقراضه؛ لأنها لا تستطيع الحجز على أرضه، فوقع فريسة للمرابين.

ويأتى الكتاب بمعلومات طريفة عن الحياة فى القرية، فالقرية تتكون من البيوت والسوق والجبانات.. وتعيش كأسرة كبيرة، وهى كلها متشابهة، وفيها دائمًا الحلاق والساحر والندابات، وفيها البقال الذى كان يمثل حلقة الاتصال بينها وبين العالم الخارجى، ويقوم فضلاً عن وظيفته الأصلية بوظيفة الصيدلى، وصاحب المقهى، ومقرض السلفيات. وكانت القرية تحيا حياة شبه مغلقة، تحكمها التقاليد والعادات الموروثة التى تحدد معالم تفكير الفلاح. وينشأ الطفل على عادة احترام الأم ومحبتها، وهنا يسجل الأب عيروط دور المرأة فى القرية، واعتماد الرجل والحياة الزوجية عليها وما لها من احترام ونفوذ، كما يلاحظ روح التعاون التلقائى الذى يسود بين الجنسين، والتى تجمع القرية كلها للمشاركة فى عمل واحد فى أوقات الأزمات والمحن. ثم يصف الأمراض التى يشكو منها الفلاح كالبلهارسيا والإنكلستوما والبول الدموى، وما أدت إليه البلهارسيا من إضعاف لبنية الفلاح الذى يقاومه بالإسراف فى شرب المنبهات كالشاى. وقد حاولت الحكومة أن تقضى على هذه العادة فرفعت سعره وكانت النتيجة أن بقيت عادة شرب الشاى كما هى، وإن فرق السعر كان على حساب غذائه الضرورى، فزاد هذا من ضعفه وعلله بزيادة سوء التغذية. ويذكر أن أشد الفلاحين فقرًا ينفق على الشاى ما يبلغ ٣٠ قرشًا فى الشهر (هذا عام ٣٨) وأنه أصبح ضروريّا كالخبز.

والفلاح يحس إحساسًا عميقًا باحترام ماء النيل، وهو يحرص على عدم ترشيحه؛ لأنه كان يتصور أن هذا انتزاعا للحياة منه. والقبط يقدمون ماء النيل بطميه بمن يمر بهم

من الزوار ومن المبشرين الدينيين ليتباركوا بطميه به (مبارك إذ هو آت من ماء النيل) . . والفلاح عندما يحتضر يسقونه جرعة من ماء النيل لاعتقاده أن طميه جالب للصحة . كما يسقون الأم عند الولادة قليلاً منه ليكون الوضع سهلاً، وحين يحلق شعر الطفل لأول مرة يوضع شعره فى قطعة من الطين ويرمى بها فى الماء .

أما عن علاج الفلاح، فيختلط الطب بالسحر فى استعمال بعض النباتات التى تستخدم للتطبيب . . قليل من التجارب وكثير من الخرافات يفسران تلك المجموعة المدهشة من الوصفات والتعاويذ التى تتجمع فى بعض الأحيان .

ويصف الأب عيروط هذا الريف الخالد عبر القرون الطاعنة فى القدم . . وإن أبلغ ما يميز الفلاح المصرى هما صفتان : الثبات، والصمود .

ويصف كيف صمد للأحداث التى مر بها وقهرها بثباته وصبره، وكيف استقبل الحضارات والمدنيات من غير أن يفنى فيها . وما يتمتع به الفلاح المصرى من وحدة قوية غير قابلة للتفتت كصلابة حجر الجرانيت الذى بنى منه معابده وهياكله . كما يلاحظ أن الحياة اليومية للفلاح ـ كما تدل عليها نقوش المقابر الفرعونية، والأساطير القبطية، وكتابات المؤرخين العرب ـ يخيل لمن يتتبعها أنها حلقات متصلة، وفصول من كتاب واحد .

* * *

رهبان العلم (الأب قنواتى والأب جومييه)

فى الاحتفال بألفية القاهرة عام ١٩٦٩م، وفى الندوة التى امتدت لأكثر من أسبوعين استرعى الانتباه ـ رغم التنوع الكبير بين الأشخاص الحاضرين ـ وجود راهبين يلبسان المسوح البيضاء، أحدهما الأب چورچ شحاته قنواتى، والثانى هو الأب چاك چومييه.. وهما من الرهبان الدومينيكان فى مصر. تتبعا الندوة بنشاط كبير وحيوية غالبة وطافا بالزوار يناقشان ويتجادلان بود واضح، وبمسلك يدل على الألفة والمعرفة السابقة العميقة.

طاف بذهنى وقتها كلمة المرحوم أحمد أمين عميد كلية الآداب السابق الذى حبذ فيها رهبان العلم.. أى التنسك وعزوف الباحث عن أى شىء سوى العلم، وترويض النفس على مشقاته وعلى الأناة والصبر.. وكلمة الدكتور طه حسين أيضًا التى دعا فيها أساتذة الأزهر أن يتعلموا من الآباء الدومينيكان. وزاد انتباهى للراهبين، كان الأب قنواتى مرحًا لا يكف عن الضحك والتعليقات والتنقل بين الناس، وكان الأب چومييه حييًا مبتسمًا فى دماثة لا يشير إلى نفسه أبدًا.

والمواطن العربى يعرف الرهبان وعاظًا دعاة لتعاليم الدين، خطباء على المنابر فقط، ولكن صورة الراهب العالم صورة عزيزة.

والأب جومييه هو نفسه الذى قرأنا له من قبل دراسة طويلة كتبها عن ثلاثية نجيب محفوظ، وناقش فيها الرواية بقلم ثابت وفكر أصيل وثقافة واسعة.

واستمعنا فى الندوة إلى بحث الأب قنواتى عن الكفاح ضد الزندقة فى مصر فى القرن الخامس عشر حسب ما كتبه المقريزى فى مخطوطة لم تنشر من قبل.

أردت أن أستفسر عن نشاط الآباء الدومينيكان وإنتاجهم العلمى واهتماماتهم، وعن العلاقة بين هذه الاهتمامات العلمية وبين الطبيعة الأساسية لهم كرهبان وهى العبادة.

وكان اللقاء.. فى شرق العباسية، وبجوار مصنع الطرابيش القديم يقع دير الدومينيكان.. حديقة كبيرة مملوءة بالأشجار القديمة، وبها بناء ضخم هو الدير، حيث يسكن الرهبان، وحيث يعملون.

وجماعات الدومينيكان جماعات مسيحية كاثوليكية تتبع الفاتيكان.. أسسها القديس دومينيك فى القرن ١٣ وإليه نسبت، وهو القرن الذى شاهد إحياء فلسفة أرسطو فى أوروبا الغربية نقلاً عن فلاسفة العرب، وخاصة عن كتابات ابن رشد فيلسوف العرب فى الأندلس، واتخذت الجماعة بهذا من يومها الأول طابع العمل على إنماء العلاقات الثقافية بين الغرب والشرق، وبين اللاتينيين والعرب. وكان القديس دومينيك فى طريقته الدينية يميل إلى تركيز الاهتمام على البحوث الفكرية والعقلية. وانتشرت طريقته فى الأساس فى أوساط المثقفين المسيحيين وفى نطاق أساتذة الجامعات وطلابها؛ لذلك انطبعت الطريقة بطابع الاهتمام بالبحوث الفكرية، ومحاولة الاتصال بالثقافات المختلفة لفهمها ومناقشتها، وما لبثوا أن انتشروا فى العالم حتى بلغ عددهم اليوم نحو ١٢ ألف راهب.

وفى القرن ١٩، عندما تطورت العلوم وأثارت المناهج العلمية الجديدة الكثير من الأسئلة المتعلقة بالدين والكتب المقدسة اهتمت جماعة الدومينيكان بمحاولة استيعاب ما يمكن استيعابه من هذه الأفكار الجديدة والتوفيق بينها وبين الدين.

وكان من هذه المحاولات أن الأب لاجرانج الدومينيكى أسس مدرسة فى القدس أسماها المدرسة الإنجيلية عام ١٨٨٠م؛ لكى تقوم بدراسة الآثار المقدسة على الطبيعة، وفى ذات البيئة، ولكى يثبت قصص الدين من خلال البحوث الچيولوچية وأعمال التنقيب على الآثار والحفائر.. وكانت المدرسة ترسل رحلات علمية لها إلى مصر لتكملة أبحاثها، ثم فكروا فى تأسيس مركز فى القاهرة يقوم بهذه الأبحاث ويتولى استقبال الزائرين وإرشادهم، وكان هذا سنة ١٨٨٣م.

ومن وقتها بدأ رهبان الدير الدارسون فيه يوجهون نشاطهم للاتصال بالأزهر والجامعات. . والاحتكاك بالحياة الفكرية فى مصر. وبعد ذلك أنشئ للدير معهد للدراسات الشرقية، أنشأه الأب قنواتى سنة ١٩٤٤م ورأسه حتى مماته.

ورسالة المعهد كما قال الأب قنواتى: هى إنشاء العلاقات مع المفكرين المسلمين على أسس علمية بحتة. . وبهدف البحث فى الفكر الإسلامى، مع القيام بالدراسات الهادئة المتعمقة فى هذا المجال. ولهذا السبب يلحظ اهتمام المعهد الكبير بمكتبته التى تضم نحو ٣٠ ألف مجلد من عيون ما ألف فى العقائد المسيحية والإسلامية فى التاريخ الإسلامى والمصرى، وفى شتى فروع المعرفة. كما يقوم المعهد بإصدار نشرة شبه دورية باسم«ميديو». يصفها الأستاذ الراحل إبراهيم مدكور أمين المجمع اللغوى بقوله: «إنها همزة وصل وأدلة بحث تربط الثقافة العربية بالثقافة اللاتينية. . وتصل الحركة الفكرية المصرية بالحركات الفكرية الأوروبية، تسجل ما يطبع وينشر فى مصر كل عام، وتتتبع آثار الهيئات العلمية والثقافية، تلخص نشاطها وتقدم صورة واضحة عن إنتاجها، فتسد حاجة وتؤدى غرضًا قد لا تشاركها فى أدائه صحيفة مصرية أخرى».

كما يذكر الدكتور حسين مؤنس الذى كان مدير معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد: «إنها عنصر هام من عناصر النشاط الفكرى، وإنه إذا أمكن للباحث أن يستغنى عن الكثير من مجلات المستشرقين فلن يستغنى عن هذه المجلة بالذات لما تقدمه من أبحاث، وما تعرف به من الكتب».

والأب قنواتى مدير المعهد ومؤسسه مصرى ولد بالإسكندرية سنة ١٩٠٥م، وحصل على شهادته فى الصيدلة والكيمياء من جامعتى بيروت وليون بفرنسا، ثم دخل سلك الرهبنة سنة ١٩٣٣م، ودرس الفلسفة واللاهوت، وجاء إلى مصر عام ١٩٤٤م، وهو فضلاً عن إدارته للمعهد كان عضواً بالمجمع اللغوى المصرى، وبجمعية الصيدلة المصرية، وبلجنة ابن سينا، والجمعية الفلسفية ببلجيكا، كما اختارته الإدارة الثقافية للجامعة العربية عضواً فى وفدها فى مهرجان ابن سينا الذى أقيم فى كلٍّ من بغداد وطهران، وانتدبته كلية الصيدلة بجامعة الإسكندرية لتدريس تاريخ الصيدلة وألف فى هذا الموضوع كتابًا عرض فيه للصيدلة والعقاقير عند العرب، ولأشهر الكيميائيين العرب، ومنهم حنين بن إسحاق، وأبو بكر الرازى، وعلى بن عباس

المجوسى، وابن ميمون، وابن البيطار، وكوهين العطار، وداود الأنطاكى. كما عرض فيه لنظام الحسبة الإسلامى ومراقبة الصيدلة والعقاقير عند العرب، كما أرسلته الجامعة العربية إلى إسطانبول لاستكشاف المخطوطات الخاصة بابن سينا ووضع كتابًا ضخمًا عن مؤلفات الفيلسوف الطبيب العربى كان من أروع ما كتب فى هذا الشأن. . ومن الطريف أنه فى أبحاثه عن ابن سينا أراد أن يقوم بإجراء التجارب الكيميائية التى وصفها ابن سينا فى كتاباته، فكون معملاً صغيراً فى الدير، وجمع له العقاقير والأدوات، وأجرى تجاربه بذات الطريقة التى شرحها ابن سينا فى كتبه، وهو يقول إن فكرة تحويل المعادن وما يعرف بتحويل النحاس إلى ذهب، هذه الفكرة لم يكن ابن سينا يعتقد فى أنها ممكنة، ولكنه قام بتجاربه عنها كمحاولة منه لمعرفة المشاكل العلمية التى تقابل هذه النظرية. كما ألف كتابًا ضخمًا بالفرنسية عن المدخل إلى علم الكلام بالاشتراك مع الأستاذ جارديه سنة ١٩٤٩م ترجم إلى العربية فى ثلاثة مجلدات بعنوان «فلسفة الفكر الدينى بين الإسلام والمسيحية».

وإذا كان التخصص الأساسى للأب قنواتى هو الفلسفة الإسلامية والعربية وتاريخ العلوم فى الإسلام والصيدلة والكيمياء، فإننا نجد الأب چومييه يهتم بالدراسات الأدبية والاجتماعية الحديثة، وله أبحاث عن فرائض الإسلام كالحج والصيام، وعن المحمل وقوافل الحج إلى مكة، كما تقدمت الإشارة إلى دراسته عن ثلاثية نجيب محفوظ.

ثم هناك لوجيه بورجيه الذى اهتم بالتصوف الإسلامى من القرن الحادى عشر، وأعد بالاشتراك مع المرحوم محمد الصادق حسين ترجمة عربية رصينة لسفر المزاميز (من الكتاب المقدس).

سألت الأب قنواتى: مم يمول الدير؟ فقال: إنه يعتمد على الهبات والحسنات التى تقدم له بمناسبة الخدمات الدينية الروحية، وإن المعهد لا يتلقى إعانة من الحكومة المصرية ولا من أى حكومة أخرى، ويدخل فى تمويله أيضًا ما يحصل عليه الرهبان من أموال نتيجة نشاطهم العلمى مقابل ما يلقونه من محاضرات وما ينشرونه، ومما يقوم به المعهد ومكتبته من خدمات ثقافية، ومن الكتب فى صورة هدايا من دور النشر. وإن

كان المعهد بعد انضمام دور النشر للقطاع العام وجد صعوبة فى الحصول على الكتب المصرية كهدايا. وكان يأمل أن يتنبه القائمون على النشر، وأن يمدوا المكتبة بما تصدره المطبعة العربية من كتب، سيما كتب التراث الإسلامى.

سألته: يلاحظ فى مجلة «ميديو» التى يصدرها المعهد حرصها على تقديم الإنتاج الفكرى العربى وكتب التراث للقارئ الأجنبى من ناحية رصد الكتب التى تصدر، وبيان موضوعاتها، مع نبذ وتعليقات عليها، وهذا جهد لا شك فى ضخامته وفى فائدته بما يعنيه من التعريف فى الخارج بالإنتاج العربى، ولكن المجلة لا تهتم بالعمل المقابل؛ وهو إمداد القارئ المصرى الباحث بالذات بالمعرفة عما يصدر فى الخارج من مؤلفات تتعلق ببلاده أو بتاريخه ليزداد معرفة، وليتم التبادل الفكرى على نحو أشمل، فقال: إن إمكانيات المعهد لا تسمح بهذا الجهد الإضافى؛ لأن عدد الباحثين قليل لا يمكن من ذلك.

وقال الأب قنواتى: إنه يمكن على أساس تخصص علمى حقيقى وجاد أن يقوم حوار أخوى بين المسلمين والمسيحيين الذين يحبون العلم ويقدرونه ويكرسون له حياتهم، وهذه أرض مشتركة لا يكون عليها ثمة مجال للمنازعات، وليس من شك فى أن المجال الدينى الخاص سيظل له احترامه. وهناك أيضًا نواح مشتركة يمكن أن تكون نقطة بداية لحوار بناء، إلا أن الخبرة أثبتت أنه سريعًا ما تنشأ عقبات لا يسهل اجتيازها، ويتحول الحوار إلى تبادل للحجج، هذا فى حين أن العلم الحقيقى يمكن أن يؤدى إلى اقتناع مشترك بين الجميع حول المسائل التى تناقش. وهذا ما اتبعه المعهد منذ البداية، فقد كان منهجه هو التخصص العلمى فى بعض النواحى التى تتعلق بالعلوم الإسلامية بروح خالية تمامًا من طابع الإرساليات التقليدى، وهذا ما أحسه بوضوح كامل جميع الأصدقاء المسلمين إذ عرفوا منذ البداية أن هؤلاء علماء مسيحيون اهتمامهم متجه قبل كل شىء إلى إقامة علاقات أخوية حقيقية على أرض البحث المشترك.

وقال الأب قنواتى: إنه فى عام ١٩٦٨م ألقى عدة محاضرات فى المعهد العالى للدراسات العربية بروما كان موضوعها «مدخل مصر المعاصرة» عرض فيها لتاريخ

مصر منذ الاحتلال البريطانى، وشرح فكر المصريين وأهدافهم من الحركة الوطنية، ثم خص مصر بعد ثورة ١٩٥٢م بدراسة شاملة أوضح فيها المعارك المتتالية التى خاضتها. ودعم محاضراته بالإحصاءات وشرح القومية العربية وفكر الميثاق الوطنى، وتابع نهضة الفكر الإسلامى والحركة الثقافية.

لو جمعت هذه المحاضرات، كان يمكن أن تتحول إلى كتاب عن مصر يحتل مكانًا هامّا وسط المؤلفات الحديثة التى كتبت عنها، وتكون خير مرآة لتوضيح الفكر المصرى فى الخارج بقلم هذا العالم الراهب.

* * *

obeikandl.com